هذي هي الأغلال

هل الأغلال في أعناقنا ؟

ثورة جامحة ، تلك التي عصفت من حول كتاب « هذي هي الأغلال » الذي نشره الأستاذ النقيمي ، فاتهم الرجل في دينه واتهم في نواياه واتهم في أخلاقه . جماعات وأفراد ، هبوا جميعاً يقاومون الفكرة التي يثيرها ذلك الكتاب القيم ، فكرة أن العقلية الدينية الجامدة هي المصنع الذي تُعِدُّ فيه أصفاد العقل ، وتفتل فيه أغلال النفس . نزع الكتاب نزعة دينية رشيدة ، نزعة المسلمين الذين قال لهم نبيُّهم « وأعدُّوا لهم ما استطعتم من قوة » ، لم يقل القوة المادية ولا القوة المعنوية ، ولا عين نوعاً بنفسه من أنواع القوى ، بل ترك معنى القوة يتحيز في فهم كل جيل من أجيال المسلمين بمقتضى الملابسات التي تقوم من حوله . ومؤلف هذا الكتاب رجل حر الرأي واسع الفهم نيّر البصيرة ، إذ قضى بأن القوة التي يجب أن يعدها المسلمون في هذا الزمن هي « العلم » بالصورة التي فهمها الغرب ، صاحب المدنية السائدة في زماننا هذا . ولا أظنُّ أن مسلماً من المسلمين يجادل في هذا مهما قعدت به الهمة عن تنفسهم روح العصر الذي يعيش فيه .

إلى جانب هؤلاء الذين أصابهم جمود العقلية الدينية ، رجال استطاعوا أن يتحرروا مما أصيب به غيرهم من مرض الرجعى إلى أساطير الأولين ، ونزعة الخوف من كل ما ألبسه الزمن ثوبا القداسة ، ولقد اطلعنا على كلمة لفضيلة الأستاذ الشيخ حسن القاياتي أبدى فيها رأيه في كتاب « هذي هي الأغلال » تدمغ بعبارات منها ، باطل أولئك الذين حملوا فؤوس الهدم وراحوا يضربون بها الهواء ظانين أنهم يضربون بها في أصول الحق : قال فضيلته :

« معسكر الاصلاح في الشرق ، طليعته ابن خلدون ، باكورة الاجتماعيين ، وجناحاه « السيد الأفغاني » ، وتلميذاه « محمد عبده » و « السيد الكواكبي » ، أما قلبه فهو

« السيد القصيمي » زوال القاهرة اليوم ، نجدي في جبته وقبائه ، وعمامته وعقاله ، ذلك هو السيد القصيمي ، إذا اكتحلت به عيناك لأول مرة قلت : زعيم من زعماء العشائر النجدية ، تخلص من عشيرته ليعيش طليقه ، حتى إذا جئت اليه فأصغيت الى حديثه الطيب أصغيت الى عالم كبير يفيض بعلم دقيق واجتماعي .

« تعرَّفت الى العالم النجدي القصيمي ، فجلست اليه مرة وعشرة ، ثم شهدته كرة ، فناديت منه داعية اصلاح ، أكثر ما يليق به الشرق وأدواؤه ، وجهله ودواؤه .

« لم أقض العجب حين هبدت السيد القصيمي من عربي في ثيابه ، ملتف في شملته ، يروعك منه عالم في مدرسته ، كان يشبهني شرقيًّا بغيرته الشرقية ، وقد بُليت مصريًّا . أتحداني هذا السيد نعيد بتطاول بكتابه « فتوهي الأغلال » ، وأنا ملول مكسال ، فتتلت عليّ الاحاطة به ، تقل الهداية على القلوب ، والجد على القلوب ، ثم عدت فألقيت عليه نظرة جعلتني أمنحه إنباهة الهب المجمل ، على الحبيب المقبل ، فاذا الكتاب منهج اصلاح وخطة إفلاح .

« لقد احتوى كتاب السيد القصيمي برناجاً لتكوين القومي ، قوامه الانحاء على أكثر من هذا الذي أصفه ، فأعنده من عيوب شائنة للشرق ، هي تلك الشاجية الآتية : فَتْرَةُ الشرق عن العلم ، تمويهه بالجهالة ، الزهد المتصنع ، تكرهه للحياة النبيلة ، صور التوكل المكذوب ، سوء الفهم لأسباب العمل ، الى مشابه لهذه النقائص الشرقيات ، بل المخزيات

« حيَّا الله السيد القصيمي ، ما أصدق نظرته الى الحياة ، وأبعد مرماه في الهداية . لقد أذكرني حديثه — وما أكثر ما أذكره — عن فترة الشرق ، بل عن كيده للعلم ، أن إحدى دول الأندلس أو المغرب لعهد قصي ، حظرت تعليم الفلسفة ، وان دولة أخرى هناك حرَّمت كتب مالك بن أنس ، رحمه الله .

أما بغداد حاضرة العلم الاسلامي وللمدنية الاسلامية فقد سقيت أرضها الري ، من دم أهل الفقه يقتتلون ، عصبية على العلم ، هذا من شيعة المذهب الفلاني ، وهذا من عدوه !!!

« أجل : لقد أذكرني السيد القصيمي أن مصلح العصر ، مجدد الأزهر ، أستاذنا « محمد عبده » لم يملك إدخال العلوم الاجتماعية الحيوية الى الأزهر ، الا عن رشوة تامة من الجوائز

المالية ، دفعها الى اهليه ، فاذا تلك العلوم تدرس فيه وإذا الأزهر يخطر في الحياة العلمية بخطى ضيقة مرة ، فسيحة كرّة ، إلى نهضته المؤودة اليوم بالنجح « وما يوم حليمة بسر »

« بي الآن أن أصل القراء الكرماء بفقرة لتعفيهم من أية ناحية لهذا الكتاب لا أعتمدها ولا أختبرها بل أفتح الكتاب عنها ، كما يفتح المعجم للتفاؤل ، ليشهد القراء : أي لسان مبين ، وفكر يزين ؟؟؟ ، قال الأستاذ القصيمي :

« شمسان هبطا هذا الكوكب الأرضي الواسع الأرجاء ، فسار شعب تحت ضياء معرفته في قوة لا تكبو ولا تذل ، فاستقل واستقل . . . ، وشعب آخر هبط غريباً في هذا الكوكب ، جاهلاً نواميسه وقوانينه ، فلم يدر كيف يأخذ وكيف يدع . . . ، هذان شعبان ، فاذا عسى أن تكون النتيجة لاحتفاظهما ، ليس هناك أدنى ريب في أن الطبيعة ستكون للعلم والعرفان » .

هذا طراز موجز مما يفيض به الكتاب ، وتلك روح ملائكية السداد والتهدي ، وطراز أعلى من مذاهب العصمة الشعبية والجلال ، بيد أن لي لختين رفيقتين ، إلى بعض ما احتواه الكتاب في روحه العالية ودعاوته الرائعة ، أولى اللختين : أن الأستاذ القصيمي حين استشهد على بعض قضاياه الاجتماعية ، ذهب ينشد أبياتاً من الشعر مخضرمة ، لشعراء العلماء ، أو العلماء الشعراء ، فيقيمها بيّنات على قضاياه تلك ، وإنما الشعر قضايا خطابية شعرية لقائل فرد ، لا تصف شأناً اجتماعياً ، ولا خلقياً ، أنشد الكتاب قول الزمخشري ، وهو عالم في تهوين العلم ، وتزيين الجهالة ، على مذهب صوفي .

العلم للرحمن جلّ جلاله وسواه في ظلماته يتقلب
ما للتراب وللعلوم وإنما يسعى ليعلم أنه لا يعلم

وقول ابن أبي الحديد المفسر :

فيك يا أغلوطة الفكر حار أمري وانقضى عمري
سافرت فيك العقول فما ربحت إلا أذى السفر
فلعى الله الألى زعموا أنك المعروف بالنظر
كذبوا إن الذي ذكروا خارج عن طاقة البشر

أجل يا مولاي ، أليس الله تعالى وصف الشاعر « أخلوطة الفكر » ، « خارج عن طائفة البشر » فلا يستكثر من هذا عليه ؟

على أن هذه المقالة ، برأيناً فيها ، مقالة شاعر متخيل ، وقائل متأوّل ، لا تقيم المذاهب الاجتماعية ، ولا تنهض قضيّة

أما ثانية المحتجين ، فتلك هي السيد القصيمي حين عمد تخلف الشرقيين ، بل المسلمين ، عن ركب الحياة ، وموكب البشرية ، تملكه إياس من انتهاضهم الاجتماعي ثانية ، ومن دبيب دم الأحياء في الأشلاء ، وحق له ذلك فإن حلية الدفير ، كحلية الدفير ! ! !

وقعدة الولدان في بيته كرقدة الميت في لحده

لست من رأي الأستاذ في خزل إبراجه من أن تدب الحياة في تجاليد الشرق ، ويعتق من الرق ، ولا من وجمي الإياء والنباتة إلى الآباة ، فان الرقيّ إذا نئث ، ثبت ، وإذا قام ، استدام .

إن النهضة الاجتماعية إذا بدت ، سرت ، وإن تمت ، تأصلت . كتبعة الفجر في الليل يبدو خيطه بُدُوّ الشعرة البيضاء في الناصية السوداء ، حتى إذا استمرّت حيناً ، طغى الصبح على الغسق ! ! !

ميخائيل نعيمة

***

وان المقتطف لعلى استعداد اتباعاً لما توحي به حرية الرأي ، أن ينشر كل ما يصله من بحوث الأدباء والفقهاء في هذا الكتاب على شرط واحد هو : أن يدور البحث من حول مسائل محددة المبادىء ونظريات علمية او فقهية توجّه فيها المناقشة توجيهاً سديداً ابتغاء الوصول الى الحق . أما الأقوال المائعة والعبارات التي تتناول وجهات غير محددة من البحث كالقول بأن الكتاب مريب أو انه سليمة للبشرين او انه دخيلة من دخائل المستعمرين بلا أية بينة من واقع او منطق ، فهذا ولا شك سلاح واهن يزيد الضعفاء ضعفاً ، ويمد عن سخيمة يكرهها العلم وينبذها الدين وتأباها الحرية ويمقتها الخلق السوي الذي هو من خلائق الرجال .